الخليج

الرأي, مقالات

3 فبراير 2017 03:03 صباحا

في ذكرى سقوط غرناطة

الكاتب

عبدالعزيز المقالح

د.عبدالعزيز المقالح

في أوائل شهر يناير المنصرم، وبالتحديد في الثاني منه، احتفل بعض الغلاة من المتطرفين الإسبان بالذكرى السنوية لسقوط مدينة غرناطة آخر معاقل العرب في الأندلس بعد حكم استمر ثمانية قرون، ازدهرت خلالها حضارة عربية إنسانية لاتزال آثارها تبعث على الدهشة، وتلهب خيال المبدعين وتشدُّ اهتمام المشتغلين بالتاريخ. ويلاحظ أن أغلبية الشعب الإسباني لم تشارك في هذا الاحتفال العنصري، بل عارضت إقامته بشدة لما يتضمنه من تحريض مباشر على العداء والكراهية. وقد انحصر الاحتفال في ولاية غرناطة، حيث بقايا العائلات المنحدرة من أولئك الذين أسهموا في تدمير المدينة، بعد أن قدمها سلمياً آخر ملوكها وهو أبو عبدالله الصغير، الذي سلَّم مفاتيح المدينة وغادر أرض الأندلس مع أفراد عائلته وحراسته دامع العين كسير النفس ترافقه لعنات التاريخ، ويطارده صوت أمه السيدة الجليلة التي كانت أول من عيّره على ضعفه واستسلامه المهين بعبارة ترددت عبر العصور، ولاتزال تتردد، وهي:

ابكِ مثل النساء مُلكاً عظيماً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وأعترف هنا، بأن الذي لفت انتباهي إلى تناول موضوع هذه المناسبة مقال رصين وبديع نشرته إحدى الصحف للكاتب المغربي محمد محمد الخطّابي، وفيه لا يكتفي الكاتب بالحديث عن الاحتفال المشار إليه، وما رافقه من ردود أفعال إسبانية وطنية معارضة للجماعات العنصرية الهادفة إلى إحياء الضغائن والأحقاد، بل نجح في إيراد بعض النصوص المتميزة لما كتبه في هذه المناسبة بعض المعارضين، ومنهم مسؤولون ومبدعون كبار. فقد أورد جزءاً من كلمة عمدة غرناطة الذي يرى أن 2 يناير 1492م «لا يقدم لنا أي قيم ديمقراطية، وهذا الاحتفال تستغله جماعات متطرفة موغلة في الحقد المجاني، ومدينة غرناطة لم يتم استرجاعها أبداً، بل تم تسليمها في أجواء سلمية للملكين الكاثوليكيين، والاتفاقات التي أبرمت خلال هذا التسليم بين الطرفين لم تُحترم ولم تُطبّق أبداً». هذا بعض ما قاله عمدة غرناطة «فرانسيسكو كونيكا» في كلمته.

والأهم من كلمة العمدة والأدعى للتوقف والتأمل، ما نشره الكاتب والشاعر والروائي الإسباني «أنطونيو غالا» الذي يقول: «في مرحلة بداية إراقة الدم في إسبانيا أيّ في يوم 2 يناير، عندما تم تسليم غرناطة للملكين«فرناندو» و«إيزابيل» من طرف آخر ملوك بني الأحمر أي؛ عبدالله الصغير، أصبحت إسبانيا فقيرة ومنعزلة وهرمة لمدة قرون، بعد أن أفَلَتْ شمس الحضارات السامية العربية فيها، عندئذٍ انتهى عصر العلم والحكمة والفنون الرفيعة والذوق والتهذيب، وتم مزج كل ما هو قوطي وروماني بالمعارف العربية البليغة. وكان هؤلاء الذين يطلقون عليه غزواً لا يدركون أنه كان فتحاً ثقافياً أكثر من أي شيء آخر، ما جعل الإسبان يسبقون عصر النهضة بنحو قرنين، ظلت إسبانيا بعد ذلك التاريخ تافهة مكروبة مغمومة ومخذولة، وكان عليها أن تنظر إلى الخارج، ومن ثمّ إلى ما كان يسمّى عصر الاكتشافات».

ولا يقف هذا الكاتب المبدع الكبير عند هذه الحقائق التي نكاد نحن العرب نجهلها، بل يزيدنا علماً ومعرفة بما قدمه عرب الأندلس لإسبانيا وللعالم كله فيضيف: «إن مكتبة قصر الحمراء كان أكبر قسط منها يتألف من مكتبة «مدينة الزهراء» التي كان بها ما ينوف على 600000 مجلد، وقد أحرقها الكاردينال سيستيروس عام 1501م في مكان يسمى«باب الرملة» في مدينة غرناطة، هو اليوم ساحة تحمل الاسم العربي القديم نفسه، فاختفى العديد من الوثائق والمخطوطات، وأمهات الكتب النفيسة التي أبدعها علماء أجلاء في فروع المعارف في الأندلس... ويقال إن الجنود الذين كلفوا القيام بهذه المهمة، كانوا يخفون بعض هذه المخطوطات أثناء إضرامهم النار فيها في أرديتهم لفرط جمالها وروعتها، إذ كان معظمها مكتوباً بالذهب والفضة، ويا لعجائب المصادفات، ففي المدينة نفسها (قلعة النهر، الكالادي إيناريس) التي نُقل إليها ما تبقى من هذه الثروة نحو 4000 مخطوط التي نجت من الحرق، ستكون المدينة التي سيولد في ما بعد بها الكاتب الإسباني الأشهر «ميغيل سرفانتيس» صاحب رواية «دون كيخوته» الشهيرة المستوحاة في أغلبيتها من التراث العربي».

نقف أمام هذه الكلمات باحترام كبير وتقدير أكبر لصاحبها الذي رفعته الموضوعية الخالصة إلى الدرجة التي يسعى لأن يكون عليها المبدعون الكبار، بعد أن يتحرر وعيهم من رواسب التعصب الإقليمي والعرقي، ويصير المبدع ناطقاً باسم الحقيقة في صورتها الأنصع والأبهى. وحبذا لو أجدنا نحن قراءة تاريخنا القديم والحديث مستفيدين من النظرة ذاتها والأسلوب العميق ذاته.

mam992008@hotmail.com

"حقوق النشر محفوظة "لصحيفة الخليج .2024 ©